المسألة الهويانية في السردية الجزائرية
"قراءة تحليلية سوسيوثقافية"

ط/د.محمّد عمّاري إشراف الدكتور.محمد خطاب
جامعة مستغانم

ملخص الدراسة

تظل الهوية قضية اجتماعية قائمة ، تفرضها قوانين ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمارية ، تكشف عن الآثار النفسية للفرد ، مما يترك المشكلة المعقدة مع الإجابات الاحتمالية النسبية التي يقدمها المتلقي متعدد التخصصات وفقًا لأفضل مراجعه الثقافية والاجتماعية. وقد أدّت رواية "القلاع المتآكلة" ل"محمد ساري" إلى تآكل مثالين على الهوية الغامضة للجزائري زمن التسعينيات؛ والذي لا يزال يلقي بظلاله على وجوده مع اقتراب الألفية الجديدة. لن يتحقق التقارب بين هذه الهوية ومشاكلها المعقدة إلا من قبل الكاتب الفكري الواعي ، الذي ينتقد الوضع الراهن ، ويكشف عن أحجامه الاجتماعية والثقافية المهترئة.

كلمات مفتاحية :هوية، سوسيوثقافية، مجتمع، فرد، واقع، راهن، رواية، مواطنة، وطن، جماليات، قراءة، سرديات، الذات، الآخر، تعايش،...

Abstract:

Identity remains an existing sociological issue, posed by the postmodernist and post-colonialist codes, revealing the psychological effects of the individual, thus leaving the complex problem with the relative probability answers provided by the multidisciplinary recipient according to his best cultural and social references. Mohammed Sari's "Castles" eroded two examples of the vague identity of the 90-year-old Algerian who still casts a shadow over his presence as the new millennium approaches. The rapprochement of this identity and its complex problems will only be achieved by the conscious intellectual writer, who criticizes the status quo, revealing its social and cultural gems.

Keywords: identity, sociocultural, society, individual, reality, bet, novel, citizenship, homeland, aesthetics, reading, narratives, self, other, coexistence… ،

في خضمّ واقعنا المحكيّ قد تناول المبدع هذه الخصوصية تناولا فنيا وثيقا، فالرواية قد ترصّدت بإنشاء سردي ظروفا مأسوية للفرد الجزائري فترة عشرية الدم، مبتعدة بذلك عن الجماليات الإعلامية التي عرفتها روايات جزائرية والتي عالجت الفترة نفسها، كما اهتمت الرواية بتبيين طبيعة الصراع والأمكنة والشخصيات القائم على الماضي والحاضر والمستقبل دون الخضوع التام لتراتبية زمنية متسلسلة تكون متوقّعة.

وتشتغل السرديات في السردية الجزائرية الراهنة بقضية الهوية التي تُشكل الخصوصية الأساسية، تنعكس من خلال التناول لهذه المسألة أسئلة الفرد الجزائري عن الرابطة التي تربطه بجغرافيته وديانته وثقافته، فهو إن ولد على هذه الأرض وتأسست جذوره فيها إلا أنه يعيش انفصالا إجباريا عنها وهذا ما جسدته رواية" ليل الأصول "لنور الدين سعدي، فقد دفعت عشرية الدم بالشخصية الرئيسية عبلة للهروب من قسنطينة والارتباط بالضفة الأخرى)فرنسا(، ولأنّ تلك الظروف أثرت فيها تأثيرا سلبيا فقد سعت في فضاء الآخر إلى إلغاء أي رابط بينها وبين الأرض)الأنا/الوطن (تفكيرا جديدا؛ لكنها لم تتمكن من ذلك فعليا، فقد عادت إليها عودة مجبرة بلا روح ترتقب.

1. السياقات السوسيولوجية للرواية الجزائرية:

من بديهيات السوسيولوجيا الثقافية أن كل أمة تحمل جملة من القيم الثقافية التي تتأسس بفضلها سلوكات الفرد وأفعاله، علما أن هذه السلوكات والأفعال غير ثابتة لعدم ثبات القيم الثقافية الماثلة، وبما أن الروائي جزء من هذا الواقع الثقافي اللاثابت فإنه سيسعى إلى وضع هذا الواقع تحت مجهر القيم والمكتسبات معبرا عنه باللغة التي ستشكل الرابط بين المتلقي وواقعه الماثل.

لقدْ كانت اللغة في كل النصوص السردية الروائية الجزائرية في فترة ما بعد الكولونيالية الرابط بين المتلقي وبين الواقع السبعيني يومئذ، وقد شكلت رواية"ريح الجنوب "لعبد الحميد بن هدوقة أيقونة هذا الواقع، فقد عرف الواقع آنذاك حمولات ثقافية محددة هي مفهوم الأرض التي ستقترن بالفرد الجزائري البسيط وليس بذلك إقطاعي الأرض المتعجر"على أن الشيء الجديد في الرواية هو الاهتمام بالأرض وارتباط الإنسان/الفلاح الجزائري بها، هذا الإنسان البسيط الذي ناضل من أجلها ذلك الإقطاعي كما كافح الاستعمار"، وهو المفهوم ذاته الذي عالجه الطاهر وطار في رواية"الزلزال"، لتؤكد ذلك الشعار الذي رفعته عاليا سلطة السبعينيات" الأرض لمن يخدمها"، وإن اختلفت الطريقة المعالجة لدى المبدعَين لهذا المفهوم، إلا أنهما قد أسسا المقاربة النصية المتوافقة ذاتها مع إيديولوجية السلطة الحاكمة المشتركة في وجهات النظر المختلفة1.

والروائيان في سردياتهما قدّما كل ما ينبغي أن يكون، هو ذلك الواقع /المثال الذي سيرتبط به الفرد الجزائري، القائم على انصهار ذاته في بوتقة الذات الجماعية الخاضعة لمركزية واحدة هي السلطة الاشتراكية، علما أنّ الروايتين صورتا ذلك الواقع في حينه وأوانه فأتت وجهة نظر المبدعين فيهما إيجابية إلى حد كبير ومتوافق تماماً.

ولنعرّج هنا إذا كان هذا واقع الرواية السبعينية، فالأمر ربما يختلف مع المدونة المنتقاة التي جاءت لقراءة فترة حساسة عرفها المجتمع الجزائري وهي فترة عشرية الدم، لتقدمها من وجهة نظر تحليلية، غرضها إثارة اهتمام قارئ الألفية الجديدة، فيقوم هو الآخر من جهته بإعادة النظر في واقع جايله أو سمع عنه، ليشارك المبدعان في طرح الإشكالية الآتية" :ماكانت هوية الفرد الجزائري في هذه الفترة؟ "ليبدأ في تأسيس الإجابة عن هذه الإشكالية مع قراءة للدلالات المختلفة المتعلقة بفاعلين في العمل:

«ينتج القارئ في تلقيه نصا محايثا للنص الأصلي على اعتبار أن حركية المعنى داخل النص لا يستقر على المعنى الواحد»2.

وطرح الروايتين لإشكالية الهوية، يعني في المقابل طرح جديد لمفهوم الأنا والآخر، فمن هو هذا الأنا ومن هو هذا الآخر؟ لم تطرح هذه الإشكالية في الروايات الاستعمارية فالأنا فيها مرتبط دائما بالقوي صاحب النظرة الفوقية، بينما الآخر هو ذلك الضعيف المفتقر دائما لوجود الأنا .إن هذه الروايات تحمل خطابا"يعلن استعلاءه الحضاري، ويُكاشف بتهجين الآخر، ولا يتردد في إبراز قناعاته التي تُشرع لأفضليته الثقافية بناء على دونية سائر الثقافات الإنسانية."

وهذا الوضوح في ماهية الذات/الآخر قدمه باحثون كثيرون منهم" إدوارد سعيد "و"رضوى عاشور "في قراءتهما الطباقية لأعمال" ويليام شكسبير "و"دانيال ديفوه "على سبيل المثال لا الحصر.

وتماهياً مع كل ما سبق وإن تجاوزت المدونة المنتقاة أسس الهوية التقليدية، فهذا لم يمنع محمد ساري تحديدا من إثارة مسألة اللغة، ناقلا من خلال شخصية المحامي عبد القادر تجذر ثنائية الصراع اللغوي/الثقافي في الجزائر بين العربية والفرنسية، فالفرد الجزائري منذ الاحتلال وصولا إلى مرحلة الاستقلال وما بعدها داخل متاهة هذا الصراع الذي خلقته القوة الاستعمارية الفرنسية، وكما يرى أغلبية الدارسين للشأن اللغوي الجزائري، فهذه القوة أتت لمناهضة الشعب الجزائري في هويته وتحديدا في مسألة اللغة،"وبين الاستعمار الفرنسي مثلا والاستعمار الانكليزي، فالأول يعمل على هدم البنيات اللغوية والثقافية التي كانت قائمة من قبل ليُحّل محله بنيات أخرى لا علاقة لها في الغالب بلغة البلد وثقافته3"

وبما أن شخصية عبد القادر كانت شخصية مثقفة فقد نقلت لنا هذا الصراع بعين الذات المثقفة الواعية في مواجهتها للذات المثقفة الفرنسية متمثلة في المحامي بن ناصر:

«مطّ سي ناصر شفتيه وهزّ رأسه قائلا :قطار التعريب يجري بسرعة، وعلينا نحن أيضا أن نحجز مكانا قبل أن يفوتنا الركب .أخاف أن يحدث لنا مثلما حدث للأقدام السود، فنضطر إلى هجرة البلد .« كما هو ماثل في متن الرواية» .

وبالانتقال إلى شخصية أخرى حيثُ لم تنقل عبلة هوية الأنا والآخر الجديدة في" ليل الأصول "بشكل مباشر، وسبب ذلك حسب التأويل يرجع إلى تركيز هذه الشخصية في رصد فعل" التقتيل "القائم والمستمر في جزائر عشرية الدم؛ فهو حسبها فعل عبثي لأنه قد مورس دون وعي شاملا كل كبير وصغير معا:

«ماذا تريدني أن أقول لك إذا كان الجنين يخرج من بطن أمه لكي يُذبح؟ ماذا تريد أن تعرف عني وعن الجزائر إذا لم تعد توجد كلمات ولا مفردات للحديث عنا»

وإذا مارسنا دورنا القراءاتي في هذه الرواية فيمكننا كشف هوية الأنا والآخر، فالعنصر الأوّل هو الجزائري الفاقد للهوية الزمكانية يقابله الآخر القاتل الدموي المجهول الصانع للاهوية الجزائرية:

«فمن أي شيء تريد أن تداويني إن كنت لا تستطيع حتى أن تفهم، أو تعاني مما أعاني منه؟ أرجوك يا دكتور دعني أنام، أنام، أنام»

لقد أراد نور الدين سعدي من خلال الاستقراء للسياق الاجتماعي الجزائري الدموي مجاوزة السؤال الذي ظل يُطرح طيلة الفترة الدموية : من يقتل من في الجزائر، إلى التساؤل عن المكانة الإنسانية للفرد الجزائري، المتأسسة على وضع هش منكسر .وقد قام محمد ساري بفعلية الاستقراء ذاته للواقع الجزائري فترة التسعينيات، ساعيا من خلال ذلك إلى منوال تفكيكي لكل خطاب سائد في تلك الفترة، محللا كل تفاصيلها المتنوعة ، رافضا إياها لأنها تفاصيل سلبية كان بإمكان المجتمع تلافيها، فهي مدينة"عين الكرمة "التي تمثل كل المدن الجزائرية في تخلفها المتزايد، هي كذلك سيطرة اللاحوار بين أفراد المجتمع الجزائري الواحد الذي خلّف صورة جديدة للجلاد وأخرى للضحية، هي التعنت والتعسّف في فرض الرأي والاعتقاد بصوابه، ليتقمص ساري بهذا مثله مثل نور الدين سعدي مفهوم المثقف الناقد الذي طرحه إدوارد سعيد »هو ذلك المثقف الذي لا يرضى بكل ما يحدث له ولمجتمعه، فهو يتمتع بالعقل الناقد الذي يعمله في النظر إلى الأشياء والقضايا الممارسة إزاء السلطة أو إزاء المجتمع «الّذي يحمل معه قابليات نقدية.

وهنا يتّضح القول إجمالا إذا لم تتضح هوية الأنا والآخر في" ليل الأصول "بشكل بيّن، فقد قامت بوضوح في "القلاع المتآكلة"، فالعنصر الأول هو ابن مدينة" عين الكرمة "والعنصر الثاني هو التوجه الإسلامي المتطرف، ليكون نبيل ابن صديقه رشيد بن غوسة هو ضحية لإيديولوجية العنصر الثاني الذي أظهره ساري متطرفا ودمويا، ليعرف في الأخير تلاشيا تدريجيا:

«إن التطرف يؤدي في كل حالاته إلى الاهتزاز في موقف المتصف به وإضعاف حجته فتتآكل أسوار قلاعه»4

ويمكن اعتبار الرواية وتطرقها للتطرف الفكري استشرافا لمستقبل لما سيحل بالوطن العربي كله في هذه الألفية، هذا التطرف الخطير كان السبب الرئيس في تأسيس اللاهوية واللاانتماء إلى منظومة ثقافية وهوياتية.

وهنا قد يرتبط متن المدونة المنتقاة بعنوانها، نكتشف أن المبدعيَن قد قدما إجابة لإشكالية الهوية التي طرحاها في عملهما، فذات الفرد الجزائري حسب نور الدين سعدي لا يمكن لها أن تتأسس بعيدا عن ذاكرته) الهوية(، لأن الجذور التي لا يمكن التنصل منها أو الانفلات عنها، فهي متأصلة فيه مهما حاول تناسيها أو مجاوزتها، لكن الإجابة عن هذه الإشكالية عند محمد ساري مختلفة، فهي مرتبطة بالفرد الجزائري وهو داخل الوطن، فلم يكن اهتمام الروائي بالذاكرة الجمعية بقدر الاهتمام باستشراف المستقبل الذي سيتأسس على أرضية إيجابية، فالفرد في عين الكرمة بل وفي كل المدن الجزائرية سيعرف هوية واضحة من خلال وعيه بقيمة علاقته بذاته وبذات الآخرين في الوقت نفسه، ويكون ذلك بعيدا عن سفك الدماء وصورة الموت المجاني المرتقب كلّ لحظة عابرة.

وتكتمل قراءتنا لعنوان المدونة هنا للكشف عن الحمولة الثقافية والاجتماعية التي أراد إيصالها الروائيان /نور الدين سعدي ومحمد ساري، إنها حمولة مرتبطة بالتغير المستمر لسيرورة المجتمع الجزائري"إن صياغة العناوين تطورت عبر التاريخ الأدبي، مادام العنوان هو الآخر بمثابة أثر ثقافي -اجتماعي يخضع لقانون التطور والتغير"، ويمكن لكل متلقٍّ لهذه المدونة المنتقاة أن يقدم قراءته التأويلية للعنوان، ساعيا إلى تحقيق انفتاحية دلالية له"أصبح العنوان يحقق غاية إيحائية تجعله مفتوحا على شتى القرارات كما هو في النص، وتكون فيه اللغة قائمة على الاختراق والانزياح، تتشكل في خضمه العلاقة بين الدال والمدلول وفق ثنائية التحديد واللا تحديد "فالمعنى الثابت لا يمكن أن يتأسس مع القراءة المفتوحة لعنوان المدونة المنتقاة لينطبق هذا أيضا على متنها السردي الراهن5.

-2جماليات الفنّ في السردية المنتقاة:

إن الروائيين قدِ اختارا هنا شخصية مثقفة لتقديم صورة الجزائر فترة عشرية الدم، لأنها القادرة على قراءة ما قد وقع، رافضة من خلال ذلك استمرار ضياع الهوية واللا انتماء المتعلق بكل فرد من أفراد المجتمع الجزائري، ونجاح الرواية عادة مايرتبط بترصّد واقعية مجتمعها لتكتسب بذلك تلقّياً أوسع.

ومعروف أنّ هذه الشخصية المثقفة في المدونة المنتقاة حالات سيكولوجية مختلفة، فهي الهادئة الثائرة والمجنونة الساخرة، وهذه التقلبات مرتبطة باللاوعي الكينوني /الوجودي القائم في المجتمع الجزائري، فقد حملت شخصية عبلة هذه الحالات السيكولوجية إلى الضفة الأخرى كاشفة عنها من خلال أفعالها المفهومة حينا واللامفهومة حينا آخر، وكذلك من خلال حديثها مع الآخر الغربي الذي تقاطعت معه في فضائها الجديد:

«لم أغادر الجزائر تحت ضغط التهديد، وإنما فررت من مرض الموت، ومن وباء القتل، فهل يمكن أن أكون أنا من أراد الفرار»6

ذات عبلة وهي في الضفة الأخرى ضائعة بين الكينونة التي ترغب فيها وهي الذوبان في الوطن وبين اللاكينونة المفروضة عليها من فضاء الدم الجزائري.

وفي القراءة لشخصية عبد القادر في" القلاع المتآكلة "تكشف عن تلك الحالات السيكولوجية التي عرفتها عبلة، فهو بين الكينونة التي أسسها مع والدته وأخيه الميلود وصديقه رشيد بن غوسة، وبين اللاكينونة التي تعلق بها في واقع دموي ومتخلف، ورغم اقتران عبد القادر بهذه الثنائية الضدية، إلا أنه سلّم بوجودها، بدليل استمرار وجوده في "عين الكرمة "وعدم التفكير في مغادرتها، لنكون بذلك أمام صورة الفرد الذي يسكنه المكان ليعلن انتماءه الدائم إليه، فهو ذاك المعلم بإحدى المدارس المتوسّطة بعين الكرمة ثم هو ذلك المحامي بالمدينة نفسها، وبما أن محمد ساري هو صورة للمثقف الناقد فقد سعى من خلال هذه الشخصية إلى ترسيخ مفهوم واضح للهوية، إنه ارتباط الفرد بالوطن وعدم مغادرته مهما كانت الأحوال، لتتأسس اللاهوية في تغييب الفرد للعلاقة الروحية المتعالقة بهذه الأرض عندما يغادرها أو يفكر في ذلك .ومقاربتنا لهذه الشخصية كشف عن التباين الثقافي بين شخصية عبد القادر وبين شخصية عبلة، هو ذلك الاختلاف الموجود في المجتمع الجزائري بين المؤمن بتحدي سلبية التغيير الطارئ في هذا المجتمع وبين المؤمن بلا جدوى هذا التحدي7.

ومع هذه الدعوة للارتباط بالأرض، إلا أن عبد القادر وعلى خلاف عبلة ، أظهر صورة أخرى للفرد الجزائري الذي خدمته التغيرات الاجتماعية التسعينية، فقد تحسنت حالته المادية كثيرا بعد تركه لمهنة للتعليم والتواصل مع مهنة المحاماة التي أطلق عليها مهنة الشيطان، وتعليل هذا التحول القيمي في شخصية عبد القادر إلى الصورة العامة للفرد الجزائري في المجتمع ليرتبط بجملة من القيم دخيلة، ومن ثم تبنيها بشكل مسلّم به:

«أنا أيضا لم أبقَ ذلك المعلم الساذج، مدرس التاريخ الذي لا يرى في الناس إلا مظاهرهم المتوددة المنافقة .جرفتني الموجة الراجفة الزاحفة، فاستبدلت مهنة التعليم النبيلة الهادئة بمهنة المحاماة المتشيطنة المضطربة» .

وإنْ قمتُ بتفكيك التغير المرتبط بشخصية عبد القادر ، فإننا نقرأ تلك النظرة الساخرة التي سعى محمد ساري إلى تضمينها في نصه فهناك عبثية فرضها هذا الواقع سينجر عنها حسب المبدع تداعيات خطيرة تهدد وجود الفرد أولا ثم المجتمع ثانيا، فلا بد حسبه من تدارك الأمر قبل استفحاله»هدف المحاكاة الساخرة هو نقد أوضاع أو أفكار تهدد المجتمع من وجهة نظر المؤلف، ومن خلال النقد تسعى المحاكاة الساخرة إما إلى إحداث التغيير أو منعه«، ولايمكن اعتبار قيام النظرة الساخرة هذه مقترن بمرحلة التسعينيات وكشف أغوارها السوداوية فقط، بل نعتبرها استشرافا لما بعد هذه الفترة، ذلك أن الواقع الجزائري مثله مثل الواقع العربي قد تجذرت فيه بقوة هذه العبثية القيمية، وتوسعت أرضيتها، ساعية بذلك إلى إلغاء عنصر الإنسانية8.

وبغياب هذا التسليم الكلّي بمعايشة الكينونة واللاكينونة عند نبيل الذي رغب في التعلق بقوة بالقطب الأوّل من الثنائية الضدية، من خلال الثورة على السلطة البابوية التي مارسها عليه والده رشيد، وتفتر هذه الرغبة ويتقلص وجودها تدريجيا مع حالة الضياع النفسي الذي عاشته شخصيته بسبب تردده في قتل الوالد اليساري، لنقف بذلك عند الارتباط القسري باللاكينونة من خلال تلك المذكرة الشخصية التي خلّفها بعد انتحاره، وقد ساعدت هذه المذكرة القارئ على تبيين العالم الداخلي المضطرب الذي عرفه شباب العشرية السوداء، فما بين اليقين واللايقين، وبين الحلم والواقع بنى هؤلاء الشباب وجودهم.

تستوقفنا رواية ساري عند تحديد الصورة العامة لعبد القادر بن صدوق، فهو وإن كان مشاركا في الأحداث، إلا أنه ارتبط في الأغلب بدور السارد الشاهد؛ وللإشارة فهذه الصورة لم لتتأسس في" ليل الأصول "ذلك أنّ الراوي العالم بكل شيء هو من تكفل برصد ذاكرة عبلة الهاربة، كاشفا في الوقت نفسه ارتباط الآخر بهذه الذاكرة سواء كان ارتباطا وتعالقا تكامليا مثلما رغب فيه آلان، أو ارتباطا فضوليا مثلما عكسته مسؤولة" قصر المرأة "للاجئين أو ذلك الطبيب الفرنسي الذي سعى لإنقاذ حياة عبلة من محاولة انتحارها الأولى9.

كانت شخصية عبد القادر تمثّل الراصد الأوّل والرئيسي لحالة التعفن الإيديولوجي الذي وصلت إليه مدينة عين الكرمة الذي جسده تطرف الجماعات المسلحة في هذا الفضاء وتأثيرها الكبير في شبابها على وجه الخصوص)نبيل وصديقه المؤثر فيه :ياسين(، مقدما كذلك ردة فعل الآخر) رشيد (المتضرر الأكبر من التحول السلبي الذي عرفه مجتمع عين الكرمة عامة وابنه نبيل خاصة، ودور عبد القادر السردي أسس تبئيرا على عوالم الأنا والآخر النفسية، فاليأس قد استفحل داؤه عند نبيل الذي انتحر ثم عند رشيد الذي رغب في إلغاء هويته الوطنية:

«يصنعون جهنما هنا كي يستطيعوا إقناع الناس بفحوى جنتهم الموعودة هناك، ومثلما قلت لي أنت منذ أيام : القافزون دبروا فيزات وفروا بجلودهم إلى أوروبا وأمريكا .أما نحن»10....

واعتماداً على المدوّنة المنتقاة لجمالية فنية أخرى هي تقنية الاسترجاع الذي شكّل طبيعة أحداثها، فقد كان علي أو "آلان "البحث عن هويته الجزائرية المفقودة المثير الخارجي الرئيسي في ارتباط عبلة القهري بذاكرتها الهاربة من مدينة الدم والموت المجاني، وتقنية الاستذكار أو الاسترجاع في هذه الرواية مرتبط بمفارقة نفسية طرفاها عبلة وآلان، فقد كان عاملا للأمن والتوتر عند عبلة:

«يجب أ، لا أعود لرؤيته ثانية، إنني أشعر أنه سيعيدني إلى هناك ...لا يكفي أن يشترك المرء مع آخرين لربط مصيره بهم»

بينما اقتران هذا الاسترجاع عند آلان بالأمن والراحة النفسية المرغوبة بإلحاح«كان يرغب في أن يعرف أكثر ويسمع منها أكثر ولكنها سكتت محتمية بنفسها في نفسها)

وتؤدّي تقنية الاسترجاع كمعطى جمالي في رواية"القلاع المتآكلة "المرتبطة بهوية الفرد الجزائري بداية من الاستقلال وصولا إلى العشرية السوداء، إنها الهوية الضبابية غير واضحة المعالم، التي ازدادت هشاشة مع فترة العشرية السوداء، فهي مابين صراع السلطة وصراع الإيديولوجية المتطرفة، وهذه الهشاشة مثلتها ذوات مختلفة فعبد القادر صورة الفرد الجزائري الذي ضاعت أحلامه الستينية، كشفتها جلساته مع ندمائه بإحدى حانات المدينة»إن ما يجمعنا ويُغذي جلساتنا هي هرمونات الشكوى الدائمة من الحياة الخاصة والعامة، نحن الآن في خريف العمر ، ومعظم أحلامنا الرائعة التي رافقت حماس السنوات الأولى للاستقلال قد تبخّرت بل ومسخت إلى كوابيس تنخر أحشاءنا قبل عقولنا«، وقد رصدت شخصية الراوي الشاهد استمرار صورة اللاهوية هذه عند جيل التسعينيات المتخبط في وضع اجتماعي هش ووضع اقتصادي ليبيرالي فاحش11.

إنّ هذه الضبابية في الهوية قد سبق محمد ساري إلى معالجتها في روايته" الورم"، ساردا فيها ضياع الفرد الجزائري المتواصل»يرصد تحولات الأحداث منذ الحقبة الاستعمارية إلى المرحلة الاشتراكية بعد الاستقلال، إلى خيارات

الانفتاح واقتصاد السوق في بداية التسعينيات، معرجا على أحداث أكتوبر والندوب العميقة في وجدان الشباب«، وهكذا يقوم محمد ساري بالدور المنوط به، إنه المثقف الناقد للمجتمع وتأثيراته السلبية في الفرد المنزوي تحت لوائه.

لا ولم تتمظهر الجمالية فقط في الشخصية وتنوع حضورها أو في الزمن والصورة الاسترجاعية المؤسسة في المدونة المختارة، بل قامت جمالية أخرى هي المكان المقترن بالمدينة وتحولاتها السريعة،وبما أن(الفن الروائي أُبتدع ليعبر عن المدينة-وليس الريف أو القرية -وارتبط ازدهاره بنشأة المدن الكبرى وانتشار التعليم) فقد اهتمت المدونة المختارة بإبراز هذا المكان العام وتأثيراته الكبيرة في الشخصية الروائية، وقد سعى الروائيان /نور الدين سعدي ومحمد ساري إلى تقديم الصورة العامة له، فعبلة تلك الهاربة من حاضر دموي قائم في مسقط رأسها قسنطينة التي عرفت فيها انشطارا لذاتها .

وهروباً من هذا التشظّي والانشطار وتلافيه ارتبطت بمدينة أخرى مفارقة للأولى هي باريس الغربة، لكنها باريس الذاكرة أيضا، ففيها سترتبط بجذورها الجزائرية القسنطينية التي أكدها شارع سانت أوان ودكاكينه المتنوعة لبيع الخردوات ورائحة أكله المثيرة لذاكرة المكان الهارب من الماضي إلى حاضرها الهش المهترئ:

(حينما نزلت باريس أخذت بعض الوقت قبل أن تدرك لماذا كانت تتردد غالبا منجذبة إلى هذا الحي الذي يذكّرها ببلدها، فقد تبين لها من غير وعي منها أنها ترغب كثيرا في الهروب منه والذي كانت تبحث عنه في وجوه المهاجرين من أبناء بلدها وفي هذه اللغة التي تعرف من خلالها لهجة كل منطق12)

ومع هذه الذاكرة المهدّدة لرغبة النسيان التي راحت تمارسها عبلة ضد وجودها، فهي في الوقت نفسه مقصد هذه الشخصية وهدفها اللاشعوري .إن عبلة بهذا تلك الذات الباحثة عن الهوية القائمة المغيبة:

(وتبقى الأمان الأليفة تعيش معنا في عزلتنا ومع خيالنا وأحلامنا وشعورنا، وتبقى الذاكرة سيدة الموقف)

وإذا بيّنت" ليل الأصول "لاهوية الفرد الجزائري بين مدينتين مفارقتين، فإن صورة اللاهوية هذه وفي" القلاع المتآكلة "قائمة على المدينة المركز :عين الكرمة ، يستحضرها التداعي الحر لذاكرة عبد القادر الشخصية الساردة، راصدا في الوقت نفسه انفعالاته وانفعالات الشخصيات الأخرى كرشيد ونبيل وسكان المدينة المتغيرة، وقيام هذا التداعي مؤسس على طبيعة التيار الذي تنتمي إليه رواية ساري وهو تيار الوعي»يتركز السرد على الحياة النفسية للشخصية، ويغيب التنظيم المنطقي للأفكار ، ويفسح المجال للتداعي الحر والتكرار والحلم والارتداد والاستباق«، فما بين ماضي المدينة وحاضرها تتأسس هذه اللاهوية13.

خُلاصة:

تظل الهوية مسألة سوسيوثقافية قائمة، تطرحها المتون والمدوّنات الروائية ما بعد الكولونيالية، كاشفة عن التأثيرات النفسية في الفرد ، لتظل بذلك الإشكالية معقدة قائمة معها إجابات احتمالية نسبية يقدمها المتلقي متعدد المرجعيات وفقا لمرجعيته الثقافية والاجتماعية المثلى لديه، ف"ليل الأصول "لنور الدين سعدي و"القلاع المتآكلة "لمحمد ساري نموذجان لضبابية الهوية المعروفة للفرد الجزائري التسعيني التي مازالت تلقي بظلالها على وجوده مع قدوم الألفية الجديدة .وتقريب هذه الهوية وإشكاليتها المعقدة هذه لن يكون إلا بقلم الكاتب المثقف الواعي، الذي ينتقد الوضع القائم كاشفا عن سياقاته الاجتماعية والثقافية الهلامية.

إحالات وهوامش:

1. عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر،2009 ، ص241

2 . عبد النور إدريس، التمثلات الثقافية للجسد الأنثوي، سلسلة دفاتر الاختلاف المغرب، ط1،2015 ، ص67

3. عبد السلام المسدي، بين اللغة والهوية، مجلة دبي الثقافية، ع96، ماي2013 ، ص45

4. أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2007 ، ص135

5نور الدين سعدي، ليل الأصول، دار البرزخ، الجزائر،2007 ، ص194

6. هويدا صالح، صورة المثقف في الرواية الجديدة، دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1،2 ٥013، ص69

7. عبد المالك أشهبون، العنوان في الرواية العربية، دار محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ط1،2011 ، ص73

8. ليل الأصول ، ص49

9. صورة المثقف في الرواية الجديدة، ص163

10. عبد الله شطاح، فضاء العنف في رواية العشرية السوداء، دار لف للنشر والتوزيع، الجزائر،2014 ، ص152 ،153

11. محمد حسن عبد الله، الريف في الرواية العربية، نقلا عن بهاء الدين محمد مزيد، النزعة الإنسانية في الرواية العربية وبنات جنسها، دار العلم والايمان للنشر والتوزيع، مصر،2008 ، ص16

12. الأخضر السائحي، سطوة المكان وشعرية القص، في رواية"ذاكرة الجسد "دراسة في تقنيات السرد، عالم الكتب الحديث، الأردن،2011 ، ص12

13. محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، تونس، ط1،209/10 ، ص126